مجلة التربية وثقافة الطفل كلية التربية للطفولة المبكرة جامعة المنيا المجلد (٢٢) ع (٢) ج (١) (يوليو ٢٠٢٢ م)
الترقيم الدولي الموحد للطباعة ٢٥٣٧-٠٢٥١ الترقيم الدولي الموحد الإلكتروني ٤٥٩٠- ٢٦٨٢

نظرية التدافع.... تأصيل أم مماثلة

إعداد:
أ.د/ خالد النجار[١]

مقدمة:

من البداية أقول إنني لا أعتبر نفسي خبيراً، لا في العلم ولا في الفلسفة. غير أني بذلت طوال حياتي محاولات جادة، لكي أتفهم شيئا ما عن العالم الذي نعيش فيه. وأعتقد أن المعرفة العلمية، والعقل الإنساني الذي ينتج هذه المعرفة، دائما يتم التربص به. بيد أن- فيما أعتقد – أن فخر الجنس البشري. وعلى قدر ما أعرف، إن الإنسان هو الكائن الوحيد في هذا الكون الذي يحاول أن يفهم ما يحدث في أرجائه. ولعلنا نواصل هذا المسار دائما، وأيضا لعلنا نكون على وعي بحدود ما نقدم من حيث المقاربة بين المتاح من المعرفة وبين الممكن الذي نحاول الوصول اليه.

فعبر سنوات عديدة كنت أسوق الحجج ضد البدع العقلية الشائعة في العلم، وأكثر من هذا ضد البدع العقلية الشائعة في العلوم الإنسانية بشكل عام، حيث يكون المفكر ذو البدعة الشائعة سجين بدعته، وأنا أعتبر الحرية من أعظم القيم التي يمكن أن تهبنا إياها الحياة، إن لم تكن القيمة الأعظم على الإطلاق، فالعقل الحر المتفتح من عبودية النص المترجم والنص الغارق في الغربة عن واقع ثقافتنا بل والتحرر كذلك من عبودية الشخص الأجنبي الذي بات سيداً في إنتاج المعرفة العلمية النفسية والإنسانية، فصار الباحث الغربي الأجنبي يلعب دور السيد في المعرفة وبات الشرق كله يلعب دور العبد في علاقة أحادية التأثير وغير متوازنة من السيد للعبد، فصادر العرب عن انفسهم حق التفكير وأعمال العقل وإنتاج المعرفة العلمية الإنسانية واحترفنا النقل والترجمة والاقتباس والاستيراد والمماثلة العمياء الفاقدة للبصر والبصيرة، وأصبح التفكير وإنتاج المعرفة العربية خروج عن النص وانحراف عن قطيع يسوقه النص الأجنبي المقدس عربياً، وقد ننصب المقاصل والمحاكم لكل من يسعى ويحاول أن ينتج نصاً عربياً أصيلًا غير منقول أو مترجم أو مقتبس.

ولقد كان التدافع نصاً خارجاً عن المألوف يخالف شريعة المماثلة والمحاكاة للغرب السيد والمتسيد بطرح رؤية مغايرة مارس فيها الباحث كل فنون ومهارات البحث والتأمل والتدقيق والتحليل والاستنباط والاستقراء للمعنى واجتهد في تنظيم وترتيب الأفكار على النحو الذي يعبر عن إمكانية تقديم طرحاً تنظيريًا متعمقاً لمعاني وأبعاد معنى التدافع باعتباره مفهوماً عربياً خالصاً يمنح الهوية هويتها وقيمتها وعمقها التاريخي والإنساني المتعدد والمتشعب في قدرته على فهم وتفسير السلوك الإنساني.

---

[١] استاذ علم النفس كلية التربية للطفولة المبكرة جامعة القاهرة

"فالتدافع نسق من التحولات له قوانينه الخاصة ويزداد النسق ثراءً من خلال الدور الذي تقوم به هذه التحولات والتي لا تخرج عن النسق الأساسي "

ويتسم التدافع بالخصائص الثلاث لأية بنية، ألا وهي:

١-الكلية

٢-التحولات

٣-التنظيم الذاتي

التدافع سنة غالبة على كل المجالات الإنسانية سواء أكانت (فسيولوجية- نفسية- قانونية- تكنولوجية -اقتصادية-اجتماعية) إلى غيره من كافة المناشط الإنسانية.

ومن أهم الأفكار التي وردت بالنظرية والذي يعد إضافة حقيقية لطرح سنة التدافع هو شرح بنية التدافع وما تحمله من خصائص (الكلية-التحولات-التنظيم الذاتي) حيث تشير تلك الخصائص إلى العمليات التآلفية التي تحدد قوانين النسق البنيوي وما به من علاقات وارتباطات وتفاعلات، كما تحدد العمليات الديناميكية التي تحافظ على استمرارية هذا النسق وبنيته المميزة وبما تحمله من حراك داخلي لتلك البنية دون الاعتماد على العوامل الخارجية.

كما أن قانون التنظيم الداخلي الذاتي هو الذي يحفظ للبنية وحدتها واتساقها وأن انغلاق البنية الذاتي لا يمنع اندماجها في بنيات أخرى، وبهذا ترتسم أمامنا رؤية واضحة محددة وشمولية لتلك البينة.

ويختتم هذا الجزء من عرض لبنية التدافع بسؤال جدلي هام ألا وهو " **هل التدافع هو الذي يشكل البنية أم البنية هي التي تحدث التدافع؟ "**

والإجابة تتحدد بأن التدافع حدث يجب البحث عن بنيته لتفسيره وهذا هو غاية العلم في البحث عن المسببات لتفسير الظواهر." **فمن منا لا يدفع غيره، ومن منا غير مدفوع من غيره"**

هذا الدفع الذي يشكل جملة التفاعلات والعلاقات بين البشر والتي يعتمد الوصول فيها لتحقيق الغايات على نسق التدافعات وشدتها والعوامل الميسرة لتحقيقها.

تلك البنية التي تنطلق من نسقاً متراكباً من العناصر يؤثر بعضها ببعض وتنصهر وتتفاعل من خلال مجموعة من التحولات لتصل بنا في النهاية إلى التنبؤ بالتغيرات وتفسير الظواهر.

وعلى هذا يمكنا الإجابة عن السؤال السابق بأن التدافع هو الجوهر الذي يشكل البنيات المختلفة.

فكما يقول ديلوز: **"لا يمكن أن يكون ثمة بنية إلا حيث يوجد التدافع، فالتدافع حالة نفي السكون المطلق بكل أشكاله وأحواله وجملة التدافعات التي تحدث داخل البنيات هي التي تحكم حركة الكون والأشياء"**

وهكذا يبرز دور التدافع في تشكيل البني التي تقودنا لفهم الخبرات المعاشة والتي يدرك بها البشر أنفسهم من خلالها حيث تقدم لنا نسقاً من المعقولية نهتدي بها في تفسير السلوك الإنساني.

أن هذا الطرح بما يحمله من إجابة على هذا السؤال الجدلي يهدم ما يعتقده بعض البنيويون من أمثال "لاكان" من أن البينية هل الأصل، فقد كان يضحي بالذات لحساب البنية فيجعل اللغة هي التي تبني الذات، وليس العقل والفكر، فيصبح الإنسان مفعولاً بدلاً من أن يكون فاعلاً.

التدافع ونظريات علم النفس:

"النظرية هي سيدة العلم وتاج المعرفة" وكل الباحثين في علم النفس يعلموا يقينًا أن علم النفس قد بدأ من خلال دراسات ماكدوجال بدراسة الدافع باعتباره الطاقة النفسية الداخلية المحركة للسلوك الإنساني في حين يمكن اعتبار أن التدافع هو بداية جديدة لدراسة علم النفس باعتباره السعي نحو تحقيق الأهداف في العالم الخارجي في ضوء كل التحديات والعوامل والصعوبات التي يمكن أن تحول دون تحقيق هذا الهدف.

والتدافع هو مدخل تفسيري يقدم المعني والفهم والتفسير للظواهر الكونية والبيئية والإنسانية، وهذه محاولة لخلق حوار بين التدافع ونظريات علم النفس المختلفة سعيا وراء تكامل مدخلات الفهم والسلوك وتقبلا لتعدد الرؤي المختلفة"

وباستعراض عدداً من نظريات علم النفس على اختلاف مناحيها العلمية وتنوع أفكارها ومجالات تطبيقها، فنجد نظرية المجال وديناميات الشخصية كما طرحها **"كيرت ليفين"** وتفاعلات تلك الشخصية مع حيز الحياة وتشكيل البنية السيكولوجية وتأثيراتها على سواء أو اضطراب التدافع.

ثم النظرية الاجتماعية الثقافية **"لفيجوتسكي"** والتي تؤكد على أن تطور التفكير يتحدد عن طريق التدافع باللغة والتدافع بالخبرات الاجتماعية الحضارية وأن العمليات العقلية هي نتيجة التدافع بين الكبار والصغار.

كما تم استعراض مفهوم **"التدخل الوسيط"** والدعم الاجتماعي ودوره في النمو العقلي والمعرفي والتدافع الإيجابي" **فالوعي هو تماس اجتماعي مع الذات"** ويَختتم استعراض أفكار النظرية وتطبيقاتها بعرض مفهوم **"حيز النمو الممكن"** والذي لا يمكن أن يتحقق إلا بإدخال شكل مختلف من التدافع يمكن من خلاله تحقيق الحد الأقصى من الأداء.

ثم استعراض نظرية التحليل النفسي وديناميات الشخصية من وجهة نظر **"فرويد"** والتدافع بين مكونات الذات (الهو الأنا-الأنا الأعلى)، كذلك الميكانيزمات الدفاعية التي تعد خط الدفاع الأخير ضد اضطراب التدافع.

ثم يأتي استعراض النظرية المعرفية ومراحل تطور النمو العقلي لدي **"بياجيه"** ويتضح دور التدافع في عملية التمثل والموائمة، تلك العملية التي تعد جزء مهماً جداً من تلك النظرية.

ومما سبق يتضح لنا أن كل تلك النظريات المطروحة للعرض والتحليل احتوت بشكل ضمني على مفهوم التدافع وما له من تأثيرات على بنية الشخصية وديناميتاها واستجاباتها مع البيئة الخارجية بما تحتويه من موضوعات أو أشخاص، كذلك دوره الهام في الارتقاء النمائي لدي الأفراد على كافة المستويات (النفسية -المعرفية والاجتماعية)

التدافع السوي أو الإيجابي:

"حينما خلق الله الإنسان يسر له كل سبل العيش والتعايش ضمن منظومة شديدة الإتقان والإبداع والتزامن، فخلقه في حالة تدافع نحو الخير، وجاءت تعاليم الأديان وهي من أهم الأساليب المباشرة في توجيه دفة الحياة نحو التدافع الإيجابي، والسعي نحو كل القيم الإيجابية التي من شأنها صلاح هذا الكون وتعميره وبناء الحضارة وإعمال العقل والسعي نحو المعرفة والاكتشاف"

آليات التدافع الإيجابي والتي تشتمل على التعايش بسلام مع الأخرين، وتقبل الأخر واحترام حريته، ويتم ذلك على المستوي الديني والاجتماعي والثقافي والاقتصادي.

أيضا يوضح آلية التعاون ودورها في تنظيم الجهود والوصول إلى الغايات المشتركة، هذا بالإضافة إلى آلية التنافس الإيجابي؛ فيعرض مثالا على هذا النوع من التنافس في مجال التعليم من حيث استخدام استراتيجيات التعليم التنافسي.

كذلك يمكن التطرق إلى آليات أخري مثل السلوك الإيثاري والتحاور الجيد ومراعاة آدابه، أيضا يستعرض آلية الإقناع ومهاراته وكذلك آلية التفاوض الذي يلعب دورا مهما في حالة فض النزاعات، فضلاً عن آلية التوجه المستقبلي واستشراف المستقبل كأحد الآليات الأساسية في الدفع الإيجابي بالمجتمعات لتحقيق النماء واللحاق بركب الحضارة.

اضطرابات التدافع:

اضطراب التدافع أو التدافع السلبي هو **"كل سلوك أو فعل يعاقب عليه القانون ويخالف معايير المجتمع والجماعة ويخالف تعاليم الأديان بمفاهيمه وقيمه، ويؤدي إلى إحداث الضرر المادي أو المعنوي بالأخرين، سواء كان هذا السلوك فردي أو جماعي"**

وعليه فان عدداً من أنماط التدافع السلبي والتي تتمثل في بعض الأشكال مثل السلوك الإجرامي والعنف والتعصب، حتى أن هذا النمط من التدافع قد يشمل المجال الاقتصادي فيظهر في صورة السلوك الاحتكاري والتنافس السلبي أو المجال الاجتماعي فيظهر في السلوك الثأري.

أيضا يشير إلى **أن "جميع الأمراض والاضطرابات التي وردت بالدليل الإحصائي التشخيصي للأمراض والاضطرابات النفسية والعقلية تعد ضمن اضطرابات التدافع باعتبار كل شخص يحتاج إلى علاج أو إرشاد أو تدخل أو تعديل سلوك أو تنمية مهارات أو برنامج علاجي تأهيلي، هو شخص فقد قدرته على التدافع السوي"**

وبهذا نجد أن اضطراب التدافع هو اضطراب علاقة الشخص بذاته أو علاقته بالأخر، هذا الاضطراب الذي يعيقه عن التدافع الإيجابي وتحقيق الصحة النفسية والتوافق.

ومما سبق يتضح لنا أن التدافع هو حتمية قدرية ومنهجية، وعلينا أن نؤمن بها ونلتزم بمقتضاها، فلا نضيع الوقت والجهد في خطط لا تراعي قوانين التاريخ وسننه.

كما انه يجب ألا نقفز على تلك السنن الكونية، وأن نسعى للوصول إلى التبصر بقوانين الله الثابتة والمطردة التي أودعها الله في هذا الكون ليسير وفقها ويتحرك بموجبها؛ بحيث يتناغم نظام هذا الكون مع طبيعة الإنسان ودوافعه ونشاطاته على وجه الأرض ودوره الاستخلافي.

وحين يحدث هذا التناغم يستطيع الإنسان أن يمتلك المعرفة ويبلغ أسرارها وينتفع بها ليحقق الرفاه والطمأنينة على هذه الأرض ويتجنب الخيبة والخسران.

ونجد أنه لكي نصل إلى هذه الدرجة من التبصر بالنواميس الكونية علينا أن نتدبر في طبيعة تلك النواميس والسنن ونحدد خصائصها، والتي تتمثل في ربوبية المصدر، وبالثبات والدوام كذلك الاضطراد والاستمرارية، بالإضافة إلى العمومية والشمولية، وأخيراً الحكمة والعدل.

أيضا يجب أن نتعرف على آليات التدافع وكيفية استخدامها بحيث تنتقي آلية الدفع المستخدمة حسب مقتضيات الموقف وحساب تبعاته ومن هذه الآليات ما يلي:

١-**الدفع**: والذي يتضمن (الدفع بالحسني-دفع الظلم لصلاح الأرض-دفع الله عن عباده المؤمنين)

٢-**الجهاد:** وللجهاد ثلاثة أوجه (جهاد ضد العدو-جهاد الشيطان-جهاد النفس)

٣-**القتال**: وتعد هذه الآلية هي سقف المدافعة؛ بحيث لا تستخدم إلا حينما تفشل جميع الآليات الأخرى في دفع الظلم والفساد عن الأرض

٤-**المحاججه**: وتتضمن إظهار الحُجة والغلبة للرأي القويم

٥-**المجادلة**: وهي المفاوضة في سبيل المنازعة والمغالبة لإظهار رأي دون الأخر

٦-**المداره**: وتعني الدفع بالحسنات لمحو السيئات

آثار التدافع وتطبيقاتها:

تتعدد الآثار الإيجابية للتدافع ويمكن تقسيمها لأثار أو فوائد عامة وفوائد خاصة

أولا: الآثار العامة: -

إن من اهم الأثار العامة لسنة التدافع في الكون هي:

١- إصلاح الكون بدفع أسباب الفساد عنه.

٢-اضطراد الحياة واستمراريتها بتدافع القوي.

٣-التوازن بين مكونات هذا الكون وقواه المختلفة.

ثانيا: الآثار الخاصة:

إن للتدافع آثاراً خاصة تظهر على الأفراد وتهيئ لهم سبل العيش على وجه الأرض ومنها: -

١-تزويد الفرد بعقيدة راسخة بأن هذا الكون له خالق يملك مقاليد الأمور ويسيرها وفقا لنواميس محدده بشكل منظم وليس عشوائي فكل شيء بقدر.

وعليه فإن كل ما يحدث من مجريات الأمور هو بهدف وغاية، وعلى الفرد التيقن من هذا الأمر والتسليم له حتى وإن لم يصل بعقليته المحدودة للحكمة الإلهية من تلك الأقدار.

٢-حث الفرد على الإيجابية والسعي المنظم وفقا لمخططات محددة لتحقيق الغايات، فالأمور لا تتم بالنوايا الحسنة فقط؛ إنما بالاجتهاد وبحسن التوكل، وبالمدافعة يتم التمكين بعون الله وقدرته.

٣- بث روح التفاؤل وزيادة الدافعية للسعي نحو تحقيق العزة والكرامة، فبالنظر والتحليل للسنن التاريخية نجد أن الغلبة دائما تكون للحق حتى وإن تأخر التمكين، فإن الله يوفي وعده ويرث الأرض لعباده الصالحين.

٤-إعمال العقل واعتماد البصيرة في انفتاح الرؤية للأحداث في إطارها الكوني تبعا للسنن الإلهية.
٥- تحقيق حالة من التوازن للفرد؛ فالمرض يقابله صحة والحزن يقابله فرح والعسر يقابله يسر يدفع به، وعلى الإنسان أن يسعي لاستخدام آليات التدافع التي تمكنه من العيش متوازنا فلا تطغي وظيفة نفسية على أخري، ولا يطغي مطلب على مطلب، ولا هوي على شرع.
٦-صقل خبرات الفرد وإبراز مهاراته وقدراته عن طريق الدفع بكل المجالات سواء العملية أو العقلية أو البدنية في شتي مناحي الحياة.
٧-حفظ الفرد لكرامته وصيانته لحقوقه بدفع الظلم والفساد عنه أو عن الأخرين.
٨-تكامل حياة الأفراد بتباين درجاتهم واختلاف قدراتهم وإمكاناتهم.
٩-تأمين حرية العقيدة للأفراد، فلا فرض لسلطان طائفة على أخري، إنما العيش بسلمية في إطار ما تحدده القوانين والشرائع الإلهية.
١٠-فتح باب الاجتهاد لأعمال العقل ومدافعة النفس والتفكر والتدبر لكل ما يدعم الفهم والتفسير.
١١-إزكاء روح العمل الجماعي والتنافس الإيجابي وتقبل الأخر واحترامه
١٢-تحقيق مبدأ التعايش السلمي مع من يستحق، وفق شرائع الله، فلا يكن التعايش ذل واستكانة أو انقياد ومداهنه، إنما تعايش يحفظ الحقوق والدماء، تعايش يقوم علي العدل والمساواة واحترام الحريات، بما يحقق الرفعة والكرامة لجميع الأطراف.

وكما أن سنة التدافع تدل على وجود خالق لهذا الكون ومدبراً لأمره في إطار سنن ثابتة ومحددة تضمن صلاحه واستمراريته.

فهذا الكون وجميع ما به من مخلوقات يسير وفق إرادة واحدة تحدد بنيته ونسقه وقوانينه، فلا مدافعة ولا مخالفة في هذا الأمر فالكون له رب واله واحد ولو كان هناك الهين لتعارضا فاختل نظام الكون وهلك وانتفت صفة الألوهية.

وأخيراً فهذه دعوة مفتوحة لجعل التدافع مادة تفكير وموضوع للبحث والتحقق وقد لا يبدو الأمر غريباً حينما نشير إلى أننا قد لجأنا بالفعل في كثير من البحوث والدراسات النفسية التي استخدمت المدافعة باللعب أو بالموسيقى أو بالفن أو بالأنشطة لتعديل كثير من السلوكيات وتنمية كثير من المهارات دون أن ندري أن ما نقوم به هو جوهر عملية التدافع.